مجلة منتدى الأستاذ
المجلد: 21 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2025 الصفحات 58- 68

تمثيلات الجنوسة عند رجاء بن سلامة

Representations of gender in Raja Ben Slama

طارق بوحالة[1]، * هاجر بكاكرية[2]

[1] جامعة عبد الحفيظ بو الصوف/ ميلة (الجزائر)، *t.bouhala@centre-univ-mila.dz*

مخبر اللسانيات بين العلم والأدب.

[2] جامعة عبد الحفيظ بو الصوف/ ميلة (الجزائر)، *h.bekakria@centre-univ-mila.dz*

مخبر اللسانيات بين العلم والأدب.

تاريخ الإرسال: 2025/08/06 تاريخ القبول: 2025/09/26

الكلمات المفتاحية:
الجنوسة؛
المذكر؛
المؤنث؛
الكتابة؛
الاختلاف؛

الملخص:

يهدف البحث إلى تتبع تمثيلات الجنوسة في كتابات الناقدة التونسية رجاء بن سلامة، خاصة في كتابها "بنيان الفحولة"، لفضح تكريس المؤسسة الذكورية للتفوق عبر الخطابات التراثية. ويعتمد منهجا تحليليا نقديا، يقرأ نصوص بن سلامة انطلاقاً من المدونة العربية (فقه، شعر، نقد)، مستلهماً التفكيك والتحليل النفسي.

وتتمحور التساؤلات حول كيفية بناء الثنائية المذكر/ المؤنث ثقافياً، ووجود "الجنس الثالث" في التراث، ودور الكتابة في مقاومة الهيمنة الذكورية.

كما يناقش حدود نظام "البيان" كنظام قضيبي يمحو الاختلاف الأنثوي ويفرض الفحولة الشعرية والعقلية.

Keywords:
Gender;
Masculine;
Feminine;
Writing;
Difference;

ABSTRACT:

The study aims to trace gender representations in the writings of Tunisian critic Raja Ben Salama, particularly in her book "The Structure of Virility," to expose the patriarchal institution's perpetuation of male superiority through heritage discourses. It employs a critical-analytical approach, reading Ben Salama's texts from the Arab corpus (jurisprudence, poetry, criticism), drawing on deconstruction and psychoanalysis.

Central questions address how the masculine/feminine binary is culturally constructed, the existence of a "third gender" in heritage, and writing's role in resisting male hegemony.

It also examines the limits of the "Bayān" system as a phallocentric structure that erases feminine difference and imposes virility in poetic and intellectual discourse.

* طارق بوحالة.

مقدمة:

تعرف الحركة النسوية في تونس بأنها من الحركات الفاعلة في السياق العربي المعاصر، كونها ترتبط أساسا بالواقع التونسي منذ الحركة البورقيبية، وما أفرزته من نقاشات كثيرة وجريئة. وقد تقاطعت مع الوضع العام في تونس منذ ستينيات القرن الماضي مع الحركة الاجتماعية في عام 1967 وصولا إلى ما بعد 2010.

وقد أفرز هذا المناخ كاتبات وناقدات ومناضلات تونسيات سجلن حضورهن كتابة وفعلا ثقافيا وسياسيا، ويمكن أن نذكر منهن: رجاء بن سلامة، وآمال قرامي، وألفة يوسف وبثينة الجلاصي، وغيرهن

أما عن رجاء بن سلامة فهي من الأصوات النسوية الأكثر جدلا في الخطاب العربي المعاصر، وذلك من خلال كتاباتها النقدية ومراجعاتها الفكرية لكثير من الأفكار والقضايا المرتبطة بمكانة المرأة ووضعيتها داخل المجتمع العربي أو في الخطابات الفكرية والدينية والثقافية العربية قديما وحديثا. ويمكن أن نذكر لها في ذلك الدراسات الآتية:

1/ الموت وطقوسه من خلال صحيحي البخاري ومسلم، 1997.

2/ صمت البيان، 1999.

3/ الكتابة والعشق، 2003.

4/ بنيان الفحولة، 2005.

كما ترجمت رجاء بن سلامة كتاب الشعرية لتيزفطان تودوروف، رفقة شكري المبخوت في طبعته العربية المنشورة عام 1987. ولها أيضا ترجمات لكتب ودراسات عديدة منها ترجمة كتاب الإسلام والتحليل النفسي لفتحي بن سلامة 2008. كما إن الحضور الفكري لرجاء بن سلامة يظهر عبر ما تكتبه أيضا باللغة الفرنسية من بحوث ودراسات عديدة تخص الخطاب الثقافي العربي وأهم الأسئلة التي تخص المرأة العربية وما تواجهه من تحديات اجتماعية وسياسية.

ورغم تخصصها في الأدب العربي، إلا أنها أصبحت منذ سنوات منشغلة بقضايا الجنوسة والتحرر من بنيان الفحولة العربية وتفكيك معالمه التي أسهمت في تثبيته كينونة وسلوكا يوميا. ومن المفاهيم التي تتمحور حولها هذه الورقة البحثية مفهوم الجندر أو الجنوسة وعلاقته بالخطاب العربي.

وتنتمي رجاء بن سلامة ضمن ما يوصف بـ: نسويات الاختلاف" حيث ترى هذه الحركة أن الكتابة النسوية تمثل شكلا من الكتابة التي تُمكن المرأة من أن تقدم نفسها بالطريقة التي تريدها، لا بالطريقة التي يريدها الرجل...[1].

كما تحاول هذه الحركة النسوية الاتكاء على "فلاسفة الاختلاف" وخاصة مقولات التفكيك الدريدي، ورؤية الفرنسي جول دولوز أو الاعتماد على التحليل النفسي، ومثال ذلك ما تقوم به جوديث بتلر في أعمالها العديدة منها الذات تصف نفسها.

وعليه فإن جهود رجاء بن سلامة تنخرط ضمن هذا المسلك المعرفي المتخصص في كشف عيوب الخطاب الذكوري باعتباره بنيانا فحوليا، يجب تقويض معالمه، ونقض المعرفة الذكورية التي يروج لها ويكرسها عبر نسق المؤسسة الثقافية عبر المحطات التاريخية.

ومما يجب الإشارة إليه في هذا السياق أن أفكار رجاء بن سلامة تقترب معرفيا من السياق النسوي الفرنسي، أو ما يعرف بالدراسات الجندرية الفرنسية التي تكمن خصوصيتها في "انشغال عدد كبير من الباحثات المتأثرات بالفلسفة وبالتحليل اللاكاني ونظرية التفكيك بالكتابة النسائية، وإبراز علاقة المرأة بالأنوثة وبالمركزية القضيبية وباللغة وبالكتابة..."[2].

وإذا ما تتبعنا ما كتبته رجاء بن سلامة من دراسات نقدية نقف عند هذا الاهتمام بالمنجز النقدي والفلسفي الفرنسي خاصة التفكيك عند دريدا وعلاقته بالنسوية وكذا بعض أدوات ومقولات التحليل النفسي عند عالم النفس جاك لاكان خاصة في استثماره للمعطيات اللسانية.

1-مفهوم الجنوسة/ الجندر:

مفهوم الجنوسة أو الجندر أو النوع من المفاهيم الحديثة، إذ يرتبط بالحركة النسوية العالمية التي ظهرت وانتشرت بقوة مع النصف الثاني من القرن العشرين. والجنوسة في أحدّ تعريفاتها هي "المسلمات والممارسات الثقافية التي تحكم البناء الاجتماعي للرجل والمرأة وعلاقتهما الاجتماعية،... والأنوثة والذكورة كشكل من أشكال الجندر يعدان تنظيما ثقافيّا للسلوكات التي ينظر إليها على أنها حالات مناسبة اجتماعيا لجنس معين"[3].

يعد الجندر أو الجنوسة الوجه الثقافي والرمزي للذات، التي تتكون من شق بيولوجي، وشق ثقافي يرتبط بالسلوكات الثقافية الخاصة بثنائية المذكر والمؤنث ومدى تعالقهما أو تنافرهما في التنظيم والبناء الاجتماعي.

ويوجد رأي آخر مفاده أن الجنوسة "مفهوم يدل على" النمط، والمقولة، والصنف، والجنس والنوع، والفصل بين الذكورة والأنوثة، بيّد أن المرادف الحقيقي للكلمة هو النوع الاجتماعي، أو الدور الاجتماعي"[4].

ومنه تحاول الجنوسة أن تكون منطقة فاصلة بين مساحتي الذكورة والأنوثة؛ أي أن تتشكل هناك حالة وسطى بينهما، منطقة "عبر جندريّة"، منطقة رمادية، مستفزة، ومثيرة للقلق وللحيرة الجنوسية.

والجندر gendre أيضا هو "مقولة ثقافية تاريخية تقوم على التمييز بين الجنس باعتباره معطى بيولوجيا وبين الجندر وهو البناء الثقافي والاجتماعي للجنس؛ أي إن الجندر هو الجسد الذي صنعته الثقافة وأوامر الثقافة واللاوعي هي التي تملي لغة الجنس وتعريفه للجسد الأنثوي واختلافه عن الجسد الذكوي"[5].

تتفق التعريفات السابقة على أن الجندر مفهوم ثقافي، ولا يمكن حصره في الحدود البيولوجية، ليجعله ذلك إفرازا لمجموعة من الأنساق المتحكمة في صناعة مواقع الاختلاف بين الأنواع الجندرية التي قد تتجاوز الثنائية المعروفة: ذكر وأنثى.

وترى الناقدة النسوية جوديت أن الجندر هو أيضا مجموعة من الوسائل الخطابية والثقافية التي من خلالها تكون "الطبيعة المجنوسة" أو يكون جنس طبيعي ما شيئا منتجا ومثبتا بوصفه سطحا سابقا عن الخطاب، سابقا عن الثقافة، ومحايدا سياسيا عليه تعمل الثقافة...[6].

ليس الجندر هو الجنس من الناحية الطبيعية وليس أيضا هو الدور الاجتماعي الذي يجعل الذكر يختلف عن الأنثى، بل إنه نوع من الممارسة الخطابية التي تندرج ضمن البنية الثقافية للمجتمع، مما يجعل الجسد في قلب الممارسة الخطابية

2- الجندر أو الجنس الثالث عند رجاء بن سلامة:

تناقش رجاء بن سلامة وضعيّة "الجنس الثالث" باعتبارها تقع بين المؤنث والمذكر، وهي ترتبط أساسا بمفهوم الهوية الجندرية؛ حيث ترى أنّ مصطلح الجندر "يترجم [...] أيضا إلى النوع الاجتماعي ليعبر عن مقولة ثقافية وسياسية تختلف عن الجنس sex باعتباره معطى بيولوجيا، وتعني الأدوار والاختلافات التي تقررها وتبنيها المجتمعات لكل من الرجل والمرأة. والبحث في الجندر يمكننا من تعويض الماهوية البيولوجية بالبنائية الثقافية، بحيث يتبين لنا أن الاختلاف بين الرجل والمرأة مبني ثقافيا وإيديولوجيا وليس حتمية بيولوجية..."[7].

توظف بن سلامة هذه المقولة من أجل إثبات أن هذه الوضعية الجندرية لم تكن غائبة عن سياق الجدل العربي والإسلامي قديما؛ إذ تعود إلى النصوص الفقهيّة والتفاسير وكتب الأخبار من أجل تبيين حالات خاصة تحيل على الجنس الثالث، ومن أجل ذلك تستحضر قصة "الدلّال" الذي وقع له مثلما وقع لكثير ممن تم إخصاؤهم، غير إن الدلّال كان سعيدا بما استحال إليه، محققا بذلك طقس العبور من جنس الرجال إلى جنس ثالث، أيّ التموضع في مكان خارج حدود النظام الجنوسي الثنائي المكون من المذكر والمؤنث.

لقد اكتسب "الدلّال" هوية جندرية جديدة ارتضتها له الإرادة السياسية، فعملية الخصي كما هو شائع في كتاب الأغاني سببها هو طلب أحد الولاة في عصر بني أميّة بإحصاء الغلمان، فكانت إضافة نقطة للحاء من قبل كاتب القرار، ليتم الإخصاء بدل الإحصاء.

يمكننا قبول هذه الحكاية على مستوى تحقيق المتعة السردية، إلا أنها قد تحولت إلى سند مهم في أطروحة رجاء بن سلامة المتعلق بوجود حالات دالة تثبت الهوية الجندرية المخالفة للنظام الثنائي الشائع. من جهة أخرى تعد حالة الدلال —حتى وإن لم توجد أصلا- بمثابة تمثيل لحالة جندرية خاصة.

وترى رجاء بن سلامة أن "النصوص التي تعود إلى القرون الهجرية الأولى والتي تفسح المجال واسعا أمام الحلم والضحك والسخرية من كل شيء، تدل على وجود فضاء اجتماعي مدنون sécularise ووجود ثقافة تحتفي بالتعدد والالتباس والجنس الثالث، لا يمكن للإيديولوجيات الحديثة الناطقة باسم الصفاء الأول أن تطمسها"[8].

تسعى الباحثة إلى تبيين أن نصوص القرون الهجريّة الأولى تفتح المجال واسعا أمام الاهتمام بالتعدد والالتباس والجنس الثالث، عكس كثير من الإيديولوجيات الحديثة التي تحاول أن تضع حواجز بينها، مما جعل الثقافة العربية تنتقل من "سرور الالتباس الجندري القديم إلى رهبة التأثم والرعب القداسي"[9].

وتدافع رجاء بن سلامة عن هذه الأطروحة باستحضار السياق العربي المعاصر، معتبرة أن الحركات الإسلامية الحديثة والمعاصرة قد أسهمت بشكل لافت في شيوع فكرة رفض الاختلاف الجندري والدعوة إلى صفاء وانسجام

جنوسي. ويبدو أن موقف بن سلامة خاضع للعلاقة المتوترة المعروفة بين حركات الإسلام السياسي والحركات النسوية في السياق الفكري والسياسي في تونس.

3- الكتابة والاختلاف:

يعتبر البحث في فكرة الاختلاف من صميم الدراسات الجندرية خاصة في العالم الأنجلوسكسوني؛ حيث اشتغلت هذه الدراسات على هذه الظاهرة وعلاقتها بالسلطة بمختلف أشكالها المعرفية والثقافية والجماعية ، وذلك بتحليل الأنساق والبنى للوقوف على طرق التبادل والتفاعل بين الأفراد...[10].

تنطلق رجاء بن سلامة العلاقة في مناقشتها للعلاقة بين الكتابة والاختلاف من منظور أن الكتابة تحتل موضعا داخل فعلي الهيمنة الذكورية أو المقاومة النسوية، فالكتابة أحد أساليب الهيمنة والغلبة الذكورية، وهي أيضا أحد أساليب المقاومة النسوية، مما يجعلها موقعا للصراع بين النمطين، والغالب في نهاية الأمر هو الذي يتمكن منها، تقول الباحثة: "في حياتنا المعاصرة كثيرا ما يتخذ إقصاء المرأة الكاتبة شكل التشكيك في حقيقة النص المكتوب، فالمرأة التي تكتب تستر كتابتها أحيانا، وتجد من الطاعنين الذين يرون أن رجلا ما يكتب عوضا عنها، فهو بذلك يمثل "قوّاما" إبداعيا عليها"[11].

تنطلق بن سلامة في هذا الرأي من مجموع الفوارق الموجودة بين المرأة المبدعة وبين الرجل المبدع، حيث تقول بأن النظام الاجتماعي الذكوري هو الذي يساهم أساسا في خلق هذه الفوارق وتثبيتها. وتضعنا الباحثة في هذا السياق من خلال قولها: "سنحاول توضيح كيفية اشتغال النظام الذي يرتب الفوارق بين المرأة والرجل في مجال الكتابة، فيلغي المرأة باعتبارها كاتبة، وسنستسقي أمثلتنا من السنة الأدبية التي نرثها ومن مجال الإنتاج الشعري بالذات. فنظام ترتيب الفوارق يبدو لنا أوضح فيه يقاوم هذا النظام كتابة النساء بطرق ثلاثة: إما أن ينكر أن الشاعرة امرأة، أو أن ينكر أنها شاعرة، أو أن ينزل بها العقاب"[12].

تقف المرأة المبدعة عند رجاء بن سلامة في موقع المواجهة لنظام "القوامة الإبداعيّة" ممثلا في دور الرجل كونه يهدف إلى تبني هذه القوامة وحجب الإبداع عنها، مما يصل حسب رجاء بن سلامة إلى حد التشكيك في حقيقة النص المكتوب من قبل النساء وإسناده للرجل.

وتظهر أصوات نسوية عالمية لا تقيم للفرق بين الجنسين دورا هاما في عملية الإبداع، ومن هذه الأصوات الفيلسوفة الأسترالية من أصل إيطالي روزي بريدوتي، والتي أثرت في بعض النسويات العربيات، ومنهن الباحثة التونسية المتخصصة في الفلسفة أم الزين بن شيخة وما جاء في كتابها "صخب المؤنث"، وما جاء فيه بأننا "لا نكتب لأننا مؤنث أو مذكر، إنما نكتب دوما من أجل الحياة ومن أجل أن تكون ثمة حياة ضد قيم الموت...وهنا علينا التشديد على أهمية الخط في الدفع بالمسألة النسوية في اتجاه مغاير..."[13].

كما تقدم الناقدة الأمريكية إليسون جاغار نقدا لاذعا لمقولات العولمة، وكيفية تعرض النساء الملونات لأشكال العنف والتمييز، والتعرض للفقر بسبب التباين الاقتصادي الذي فرضته ثقافة السوق الحرة، عندما تم استبعادهن من المهمن عالية الدخل.

وترى جاغار أن البنى الاجتماعية البطريركية تميل إلى الحد من حرية المرأة في الوصول المباشر لتحصيل ثروة جديدة. كما ترى جاغار أن العولمة الليبرالية الجديدة قد أسهمت بشكل بليغ في زيادة "جنسنة" (sexualization) النساء في العالم من خلال صناعة الأفلام الإباحية والسياحة الجنسية في أجزاء من أسيا وجزر الكاريبي ... [14].

وقد أدت العولمة الليبرالية إلى تخفيض البرامج الاجتماعية الخاصة بوضعية النساء، مما جعلهن يقعن فريسة العمل غير المدفوع الأجر، وهو السبب الذي دفع الفتيات في الجنوب العالمي إلى الانقطاع عن المدرسة بالإضافة إلى غلاء الرسوم حول التعليم. ولم تغفل جاغار عن إثارة الجدل حول انخفاض تمثيل المرأة السياسي والثقافي بسبب العولمة الليبرالية التي حدت من ذلك في دول على حساب أخرى.

أما عن الأصوات العربية المعاصرة التي تقف موقفا نقديا من القوامة الذكورية وعلاقتها بمقولة الهيمنة على النساء هي الباحثة السورية ميادة مصطفى الكيالي التي تقدم أطروحتها عن الزواج في حضارات العراق ومصر القديمة تحت مسمى هندسة الهيمنة على النساء، حيث حاولت الكشف عن تحيزات النظام الأبوي وتحكمه في "مؤسسة الزواج ويقيدها بقوانين تتعدى تنظيم العلاقة، وتطمح إلى إدامة الهيمنة على النساء..."[15].

4- البيان والسلطة الذكورية:

تنتقل رجاء بن سلامة إلى نقد نوع آخر من النظام المتحكم في ترتيب الفوارق بين الرجل والمرأة على أساس ثنائية ذكورة/ أنوثة، موظفا السمات الأنثوية والذكورية، حيث تصف بن سلامة هذا النظام بـ"البيان"، وهو نظام نقدي يستحضر النصوص البلاغية القديمة، مما يجعله من منظورها نوعا من الأصولية النقدية، وذلك بالبحث عن نظرية عربية صالحة لكل زمان ومكان، وتعرف بن سلامة نظام البيان بأنه "هو الجهاز الميتافيزيقي الذي أحاط بالنصوص القديمة المبدعة إحاطة نظرية ومعيارية، ومازال يخترق النقد الذي يدّعي الحداثة، ومازال يؤدي إلى محو الكتابة عبر مجموعة من الآليات منها، رد المؤتلف على المختلف والمجهول إلى المعلوم ورد السلبي إلى الإيجابي"[16].

وتظهر بن سلامة أن نظام البيان هو بمثابة منظومة قضيبية عقلية تحمل سمات المنظومات التي يتناولها الفكر التفكيكي المعاصر بالنظر إلى أنها منظومة تجعل الكتابة موضوع تهميش ومحو، وتعلي من القيم التي تجعل الرجل سيد المرأة، والتي تجعل المغاير مختزلا والأقلي مقصي وتجعل التفكير تأكيدا للهوية وإنكارا للاختلاف"[17].

تهاجم رجاء بن سلامة هذه المنظومة الذكورية التي تكرسها سلطة البيان، لتتقاطع مع المقولة المعرفية الشائعة في الكتابات النسوية الغربية ومفادها: هل يؤدي الاختلاف إلى الانفصال؟ وهو إشكال نقدي ناتج عن... الحركات النسائية الغربية القائمة على الاختلاف، حيث ترى، أن هوية المرأة، بخلاف هوية الرجل، متمددة جدا، لذلك من غير المفيد أن نحبس المرأة في التعريف الدقيق لما تعنيه، ويسري الشيء نفسه على الكتابة النسوية.[18]

يقرب القول بالفكر التفكيكي آراء "بن سلامة" من أطروحات الحركة النسوية الفرنسية التي لها اهتمام خاص بمقولة الاختلاف بمفهومه الدريدي، الذي لا "يتعاطف كثيرا مع الإيديولوجية الذكورية، فرؤيته للأنثوي تتصل بالتيولوجي والصوفي أكثر وتتفوق على الرؤية الإيروسية والحقائق المسبقة حول جسد الأنثى ..."[19].

وتحمل بن سلامة سلطة البيان في المنجز العربي التراثي من خلال العناصر الآتية:

-مفهوم عمود الشعر والإحالة القضيبية الرمزية: وتقول في هذا العنصر أنه "من شأن منظومة البيان حماية عمود الشعر والإحالة القضيبية الرمزية غير خافية في صورة العمود وفي مفهومه بما أنه "مذهب الأوائل"، و"النهج المعروف"، والسنن المألوف"[20].

-مفاهيم الفحولة وصورها المتعددة في النقد العربي القديم: وتبين ذلك في قولها: "لا يمكن أن نتحدث عن الفحولة دون افتراض ضدها أو نفيها بطريقة واعية أو غير واعية، وهو أمر بديهي لم ينتبه إليه الباحثون في نقد القدامى، ربما لعدم رغبتهم في طرح إشكال المركزية القضيبية. فيمكن أن نذهب إلى أن ما تنبني عليه منظومة التمييز بين ما هو فحولي وغير فحولي هو الأنثوي الباعث على القلق"[21].

وترجع رجاء بن سلامة في نقدها لمقولة الفحولة وعلاقتها بالهيمنة الذكورية سبب عدم اهتمامها بهذا "الأنثوي الباعث على القلق" إلى سمتين متناقضتين متكاملتين وهما:

أ:"إنه إفراط في الافتقار والنقص من ناحية، ولا يخفى أن الشوق أمر يتحدى العقل، لشدته وتولده المستمر ولذلك تحاصره الأخلاق الدينية، فطبيعة الإفراطية تجعله متنافيا مع الأخلاق، وتجعله فوضى جسدية وتجاوزا للحدّ، ولمبادئ الاعتدال والتوسط. والافتقار باعث على القلق، لأنه يضع الإنسان وجها لوجه أمام ما لانهاية له"[22].

ب:"إنه إفراط في الزينة وفي الزيادة من ناحية أخرى. والزيادة مخيفة كالنقص، لأنها تهدد باضمحلال الأساسي والحقيقي، ولكنها في الوقت نفسه ناتجة عن الرغبة في سد الافتقار والنقص..."[23].

أما عن العنصر الثالث فهو ثنائية اللفظ والمعنى وعلاقتها بثنائية الأنثوي والذكوري المرتبطة أيضا بثنائية المحسوس المعقول، والجسد والروح... وتستشهد الباحثة في قضية اللفظ والمعنى وعلاقتها بثنائية الأنثوي والذكوري بقول ابن رشيق في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده بقوله: " اللفظ جسم وروحه المعنى... وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختّل بعض اللفظ، كان نقصا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح..."[24].

وتوظف رجاء بن سلامة خبرتها في التحليل الأدبي –وهي التي اشتغلت في موضوع الكتابة والعشق–[25] من أجل الكشف عن مضمرات الخطاب التي تحيل على الفوارق بين الذكوري والأنثوي، والمفاضلات بينهما، وذلك بالعودة إلى بعض الآراء النقدية الشائعة في المدونة التراثية، حيث ترى أن "الخطاب الذي فرض أولوية المعنى شيئا هو نفسه الخطاب الذي فرض فحولة الشاعر، وفرض القيم العقلية القضيبية. ويمكن أن نذهب إلى أن سمات الأنثوي قد تتعارض مع قيم الفحولة الشعرية على مستوى النصية والنصوص المنجزة"[26].

تتقاطع رجاء بن سلامة في هذه الفكرة مع اجتهادات الناقدة الفرنسية من أصل بلغاري جوليا كرستيفا من خلال أعمالها العديدة مثل بنية اللغة الشعرية وقصص في الحب، حيث تتعامل مع "الجانب السيميائي والرمزي على أنها جندرية بشكل كبير، وفي طرح الاختلافات الجنسية على أنها تفوق ذكوري بمقابل الأنثوي. وترى أن مفهوم السميائية يوفر بعض المساحة للتعبير عن الأنوثة التي ليست هي الجوهر، لكنها مبنية عبر عمليات غير لغوية أو خارج اللغوية..."[27].

ومن أجل تبيين هذه الفكرة تحتج رجاء بن سلامة بشواهد عديدة، فهي ترى أن الشاعر ذي الرمة قد أُخرج من دائرة الفحولة الشعرية بسبب إفراطه في الغزل والشوق كونهما من الصفات التي تؤنث العاشق، الأمر الذي يتعارض مع أنساق وتمثيلات الرجل/ الفحل الجاهلي.

كما إن أبا تمام قد صنف خارج العقلية القضيبية كونه "طلب البديع فخرج إلى المحال" ليتهم بالإغراب والابتعاد عن القول الشعري المألوف. وما يلاحظ في هذا السياق أن الناقدة تمارس نوعا من الاستقراء الناقص، حيث تختار تجارب بعينها قصد تبرير موقفها من الهيمنة الذكورية، وأساليبها المخاتلة في تكريس مقولة الفحل الثقافي وفرض العقلية الذكورية.

وتواصل رجاء بن سلامة مناقشتها لقضية البيان وعلاقته بفكرة الاختلاف، وصراع المواقع بين الذكوري والأنثوي، والهيمنة على أساليب البيان من قبل المؤسسة الذكورية، مما جعلها تكرس ثقافتها القضيبية، فـ"القيم البيانية التي تكرس المركزية العقلية القضيبية مازالت فاعلة إلى اليوم، وأين؟ في الدراسات التي تدافع عما تكتبه النساء، وتفترض وجود كتابة نسائية متفردة. الماقبليات البيولوجية هيمنت على الفكر قديمه وحديثه وجعلت المرأة وعاء سلبيا والرجل فاعلا إيجابيا تعود، ولكن بطريقة لاشعورية وفي مستوى المفاهيم الوصفية والإجرائية"[28].

وتخلص الباحثة إلى أن المناهج النقدية المعاصرة مثل السيميائية والأسلوبية قد ظلت أسيرة ثنائية الدال والمدلول، والخطاب والسرد عند السيميائيين، والقول وطريقة القول عند الأسلوبيين، غير إنها في الحقيقة تمارس نوعا من التمييز والتحيز، فما "تقدمه السيميائية من أدوات يفرض ذاتا "بيانية" ويلغي عوامل الشوق وتعقدّه"[29].

يبدو أن المناهج التي تقوم على أسس لسانية خاصة تلك التي تستثمر ثنائيات الدال والمدلول، والسرد والخطاب، والقول وطريقة القول لا يمكنها إلى أن تفرز فروقا جوهرية بين المذكر والمؤنث، مما جعل بن سلامة تستأنس بالتفكيك والتحليل النفسي قصد التحرر من سجن هذه المناهج. لكنها في الحقيقة لم تتحرر بشكل نهائي لأن الأدوات المستثمرة من قبل الباحثة أسسها الأولى لسانية؛ أي إن التفكيك عند دريدا لم يخرج من فكرة الثنائيات، كما إن التحليل النفسي عند لاكان قد استثمر هو أيضا منجزات اللسانيات.

وتقع الباحثة في سجن هذه الثنائية، كونها تنطلق من مقدمات جندرية ترسم فوارق جوهرانية بين المذكر والمؤنث، مما يجعلها في تكرس هي بدورها ما تنقده في الهيمنة الذكورية.

وتدافع رجاء بن سلامة عن أطروحته الجندرية انطلاقا من أن "في أفق الثقافة العربية يمكن أن نعتبر أن حواء خلقت من ضلعه، ولكن شريطة أن نعتبر أدام نوعا من الأندروجين، بما أن حواء خلقت من ضلعه، ولكن شريطة أن نصوغ هذه الأسطورة صياغة أخرى تنسجم مع تصور رحب للذات البشرية: حواء لم تخرج بصفة نهائية من آدم، وآدام لم ينفصل بصفة نهائية عن حواء. تعود هذه الوشائج كلما انطلق القلم بالمكتوب، وانطلق الفكر بالحلم"[30].

كما تناقش الباحثة جملة من القضايا الجندرية التي تتصل بنظام "البيان" ومركزية الفحل الذكوري ضمن هذا النظام، وذلك بالتركيز على "نسق الترتيب" كونه ينبثق من مبدأ تنظيم الفوارق بين الجنسين وليس من منظور الفعل

والأداء الحر. فـ"ترتيب الفوارق، وتنظيمها هو نظام البيان ونظام الحقيقة، وتبادل المواقع هو نظام الحرية، ترتيب الفوارق يعني اختلاف المتعددين وتبادل المواقع يعني اختلاف الواحد"[31].

خلاصة:

تبقى رجاء بن سلامة من الأصوات النسوية القلقة والمشاغبة والمثيرة للجدل لأنها في سعي مستمر من أجل تقويض معالم الخطاب الذكوري المكرس عبر كثير من الروافد؛ معرفية وسياسية واجتماعية-ثقافية، محاولة الكشف عن الجندر من منظور ثقافي وسياسي، بعيدا عن الاختلاف البيولوجي، مركزة على الخطابات العربية التراثية والمعاصرة لفضح التحيزات الذكورية ضد النسق الأنثوي.

تقدم رجاء بن سلامة أطروحتها ضمن تاريخ النساء في الحضارة العربية الإسلامية مثيرة إشكالات حارقة، مثل ما نجده في حديثها عن الحجاب، ومجابهتها لكثير من الأحكام الفقهية من منظور المقاربة الجندرية الرافضة لسلطة النصوص الشارحة للآيات القرآنية والأحاديث النبوية. فهي من المناضلات اللواتي وقفن ضد المؤسسة الذكورية بشكل رافض. وهو ما تسميه بالفحل السياسي مرادفا للفحل الثقافي.

وتندرج أطروحة بن سلامة ضمن نقد التمثيلات الثقافية المعبرة عن السلطة الذكورية وأهم التصورات الرمزية التي تعبر عن الفحولة، إذ لا يتم ذلك دائما بواسطة الفعل بل إن اللجوء إلى البنى المجازية له الأثر البالغ في تكريس هذه الأشكال من الهيمنة الذكورية بواسطة أدوات عديدة منها الممارسة الخطابية واللغة المجازية.

ولكن ما يجب أن نسجله حول أطروحة رجاء بن سلامة بخصوص أنساق الهيمنة الذكورية، هي المواجهة العنيفة التي تحاول دائما ممارستها ضد الخطابات الذكورية، خاصة بعد صعود تيار الإسلام السياسي في تونس الذي كان غائبا لسنوات عديدة، وما عرفته البلاد من انفتاح سياسي خلفه الربيع العربي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. آمال قرامي: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، دراسة جندرية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007.

2. جوديث بتلر: قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، تر، فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2022.

3. خضر حيدر: مفهوم الجندر، مجلة الاستغراب، العدد 16، صيف 2019.

4. رجاء بن سلامة: العشق والكتابة، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2003.

5. رجاء بن سلامة: بنيان الفحولة، أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بترا، سوريا، ط1، 2005.

6. أم الزين بن شيخة: صخب المؤنث، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، ط1، 2023.

7. ستيوارت سيم: أقدم لك النظرية النقدية، تر، جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط/ 2005.

8. كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ترجمة، جمال بلقاسم، رؤية للنشر، ط1، 2019.

9. ماري هولمز: ما الجندر؟ تر، مازن مرسول محمد، ابن النديم، دار الروافد الثقافية، الجزائر، لبنان، ط1، 2024.

10. محمد بكاي: جدل النسوية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2019.

11. ميادة الكيالي: هندسة الهيمنة على النساء، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 2018.

12. وفاء الدريسي: الجواري والغلمان في الثقافة الإسلامية –مقاربة جندرية– مؤمنون بلا حدود، الرباط، بيروت، ط1، 2016.

الهوامش والإحالات:

[1]محمد بكاي: جدل النسوية، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2019، ص 17.

[2]آمال قرامي: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، دراسة جندرية، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007، ص 15.

[3]كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ترجمة، جمال بلقاسم، رؤية للنشر، ط1، 2019، ص 166.

[4]خضر حيدر: مفهوم الجندر، مجلة الاستغراب، العدد 16، صيف 2019، ص283.

[5]وفاء الدريسي: الجواري والغلمان في الثقافة الإسلامية –مقاربة جندرية– مؤمنون بلا حدود، الرباط، بيروت، ط1، 2016، ص 16، 17.

[6]ينظر جوديث بتلر: قلق الجندر: النسوية وتخريب الهوية، تر، فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2022، ص78.

[7]رجاء بن سلامة: بنيان الفحولة، أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بترا، سوريا، ط1، 2005، ص13.

[8]المصدر نفسه، ص 15، 16.

[9]المصدر نفسه، ص 20.

[10]ينظر: آمال قرامي: الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، دراسة جندرية، ص 10.

[11]المصدر نفسه، ص45.

[12]المصدر نفسه، ص45.

[13]أم الزين بن شيخة: صخب المؤنث، هنداوي للنشر، القاهرة، ط1، 20، ص 17.

[14]إليسون جاغار وأخرون: الدرجة الصفر للتاريخ أونهاية العولمة ، دار الحوار، سوريا، ط1، 2004، ص 28.

[15]ميادة الكيالي: هندسة الهيمنة على النساء، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 2018، ص28.

[16]المصدر نفسه، ص44.

[17]المصدر نفسه، ص 46.

[18]المصدر نفسه، ص 46، 47.

[19]ستيوارت سيم: أقدم لك النظرية النقدية، تر، جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط/ 2005، ص 163.

[20]المصدر نفسه، ص 47

[21]المصدر نفسه، ص47.

[22]المصدر نفسه، ص47.

[23]أم الزين بن شيخة: صخب المؤنث، هنداوي للنشر، القاهرة، ط1، 20، ص 17.

[24]المرجع نفسه، ص161.

[25]رجاء بن سلامة: العشق والكتابة، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2003.

[26]نقلا عن رجاء بن سلامة، ص48.

[27]ماري هولمز: ما الجندر؟ تر، مازن مرسول محمد، ابن النديم، دار الروافد الثقافية، الجزائر، لبنان، ط1، 2024، ص 74.

[28]المصدر نفسه، 50.

[29]المصدر نفسه، 51.

[30]المصدر نفسه، ص56.

[31]المصدر نفسه، ص 56.